بلاغة التركيب القرآني في صيغ "تبع"

الدكتور
عبد العزيز بن صالح الدعيلج
كلية اللغة العربية – الرياض

بلاغة التركيب القرآني في صيغ" تبع"

يتميز القرآن الكريم بنظم فريد في تأليف حروفه، وكلماته، وجمله وسبكها مع أخواتها في قالب فريد محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالب محكم بعبارة واضحة، ونظم جميل.

وهذه الدراسة تعنى بإبراز الجمال للجملة القرآنية في صيغ "تبع" وكيف وظفت هذه الصيغة بجميع مشتقاتها في خدمة التركيب الذي ترتبط به، سواء في جانب الخبر والإنشاء أوفي جانب التقديم والتأخير، أو التقييد والإطلاق، أو الاسم والفعل،أو القصر والتخصيص، أو الإسناد المجازي.

إن الجملة القرآنية في صيغ (تبع) تتميز بالتناسق والتآلف بين العبارة القرآنية، والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه، حيث يبرز للمتأمل التئاما عجيبا بين هذه الصيغ داخل الآية وبين أخواتها من الكلمات، وهي في النهاية تتوجه لخدمة الغرض المنشود في الآية.

وعلى ذلك فإني سأدرس أبر الخصائص التي برزت في صيغ (تبع)، وهي كما يلي:

١. الخبر والإنشاء.

٢. التقديم والتأخير.

٣. التقييد.

٤. الجملة الاسمية والفعلية.

٥. القصر.

٦. الإسناد المجازي.

هذا، وأسأل المولى عز وجل أن يوفقني للصواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخصائص البلاغية للجملة التي توظف صيغ "تبع":

أولا: الخبر والإنشاء:

تتضمن الجملة أمرين مهمين: التركيب، والإفادة المستقلة، وتنقسم بحسب مضمونها قسمين؛ فقد تغلب عليها الأخبار والإفادة المباشرة بأي أمر من الأمور فهذه الجملة الخبرية. وعلى ذلك فيمكن تعريف الخبر بأنه ما تركب من جملة فأكثر، وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية. ومن الجمل ما يغلب عليها الأوامر والنواهي، أو يكون بها الاستفهام أو التمني أو النداء، أو تتضمن صيغا للعقود أو المدح أو الذم أو الرجاء أو التعجب أو القسم، فهذه هي الجملة الإنشائية. وعلى ذلك فيمكن تعريف الإنشاء بأنه: ما سوى الخبر مما أفاد طلبا أو تضمنه.[1]

أ. الخبر:

برز في جملة (تبع) الخبرية كثير من الأسرار البلاغية التي صاحبت السياق،وإذا كان ما سبق يتعلق بالكلام العادي، فإن من الصور السابقة في سياقات خاصة بالقرآن الكريم ما يفيد أغراضا بلاغية أخرى مثل:

١. المبالغة:

برز ذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ غافر: ٤٧ والآية تعرض مشهدا مأساويا من داخل النار، بعد أن قضى الله في شؤون العباد، ودخل الجنة أولياؤه، ودخل النار أعداؤه.. وفي هذا الموقف يلجأ الضعفاء الذين أطاعوهم من رؤساء الكفر والضلال ويستفتونهم : هل هم قادرون على أن يتحملوا عنهم مقدارا من العذاب الذي

---

[1] انظر:النظم القرآني في آيات الجهاد٢٥٢

يلاقونه في النار، وقد كانوا من اتباعهم في الدنيا؟ ولذلك برز الخبر مؤكدا على ألسنتهم (إنا كنا لكم تبعا) للمبالغة في إثبات التبعية ، وكمال الإخلاص فيها في الحياة الدنيا، وفي ذلك إلزام للذين استكبروا ليحملوا عن الضعفاء نصيبا من العذاب . قال البقاعي : " ولما كانوا لشدة ما هم فيه يتبرأ كل منهم من صاحبه ، أكدوا قولهم: (إنا كنا لكم تبعا) أي: دون غيركم، أي : أتباعا فتكبرتم على الناس بنا..."[1] والتبعية هي التبعية على الكفر بالله كما يقول ابن جرير.[2] وفيه اهتمام بالخبر الملقى لتذكيرهم بالولاء الذي بينهم في الدنيا.

- وهناك نوع آخر من المبالغة برز في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ البقرة: ١٢٠ كأنهم قالوا لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا ، إقناطا منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخولهم في الإسلام، فحكى الله عز وجل كلامهم، ثم علم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم عن قولهم: (قل إن هدى الله هو الهدى) يعني :" أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى" .[3] والمقصود أن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم ، وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم، ولا يرضون منه بالكتاب ، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم

---

[1] - نظم الدرر ٣٢٧/٧

[2] - نظر: جامع البيان ٧١٤٧/٩

[3] - الكشاف ٩١/١

عليه، "فبين بذلك شدة دعوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم" .[1]

والغرض من هذا الخبر: المبالغة في إقناط الرسول صلى الرسول صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته؟ وتأمل دخول (لا) على قوله : (ولا النصارى)" لتأكيد النفي لما أن تصلب اليهود في أمثال هذه العظائم أشد من تصلب النصارى، والإشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الأخرى".[2]

وقد جاء هذا الكلام المؤيس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية في قوله:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾ البقرة: ١١٩على نحو مجيء العتاب بعد تقدم العفو في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾التوبة: ٤٣ وهذا من كرامة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

وقد بدئت الآية بالنفي بـ (لن) التي لنفي المستقبل وتأبيده ووصلت بـ (حتى) التي تفيد الغاية " ومعنى الغاية في (حتى تتبع ملتهم) الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنهم كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته. [3]

٢.**التأكيد:** تأمل قوله تعالى:﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ ﴾ الأنعام: ٥٦ في التوجيه له صلى الله عليه وسلم للتعامل مع المشركين بعدم اتباع أهوائهم ،

---

[1] – التفسير الكبير ٢/٢٩

[2] – إرشاد العقل السليم ١/١٥٣

[3] – التحرير ١/٦٩٣

أي: لا أجري على طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل " وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل.[1] وفي قوله:(لا أتبع أهواءكم) الخبر تأكيد لقطع أطماعهم ، وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم، واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم.[2]

٣.التشريف: وقد أفاد الخبر التشريف في قوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ٦٨ فأحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته الذين سلكوا طريقه ومنهاجه . وقوله تعالى: (للذين اتبعوه) خبر (إن) دخلت عليه لام الابتداء تأكيدا واهتماما وعناية به، وقد عطف عليه (وهذا النبي والذين آمنوا) تشريفا وتكريما. قال ابن عاشور: " وعطف (النبي) على الذين اتبعوا إبراهيم للاهتمام به، وفيه إيماء إلى أن متابعة إبراهيم عليه السلام ليست متابعة عامة ، فكون الإسلام من الحنفية أنه موافق لأصولها.[3] والتشريف نابع من تلك الولاية التي اختص بها أولئك دون غيرهم وقد ادعى كل فريق من أهل الكتاب أنه منهم وكان حجاجهم فيه: ادّعاءُ كل فريق من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم، وأنه كان يدين دينَ أهل نحلته. فعابهم الله عز وجل بادّعائهم ذلك، وأثنى على الذين اتبعوه بصدق كما أثنى على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به.

---

[1] - الكشاف٢/١٨

[2] - أنوار التنزيل ١٩٠/٢إرشاد العقل السليم١٤١/٣

[3] - التحرير٢٧٧/٣

أ. الخبر: كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾البقرة: ١٧٨ جاء الخبر في الآية جملة شرطية للحث على العفو عن القاتل، وأداء المعفو عنه بإحسان.و الفاء لتفريع الإخبار ، والتعبير بـ (عفي) ؛ لأنه يؤذن بمراعاة التيسير والسماحة ، وهي من أخلاق الإسلام ، فهذا تأكيد للترغيب الذي دل عليه قوله: (من أخيه) إشعارا بعظمة العفو والإحسان عن القاتل " وقيل له: (أخوه)؛ لأنه لابسه من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا، لمن بينه وبينه أدنى ملابسة، أو ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام "[1] والقصد من الآية: الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلا من القصاص.وقد جاء جواب الشرط الخبر(فاتباع) حاملا الرغبة في العفو، والقبول بالدية، وأداء المعفو عنه ذلك إليه بإحسان، ليحصل الوئام والسلام في المجتمع بهذه الكرامة. لقد أعطى المصدر(اتباع) شيئا من الرأفة والإلفة بعد حصول العفو، أما وقد حصل ذلك فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية، وعلى القاتل الأداء بإحسان من غير ضرر ولا مدافعة. " والمراد وصية العافي بأن لا يشدد في طلب الدية على المعفو له، وينظره إن كان معسرا، ولا يطالبه بالزيادة عليها، والمعفو بأن لا يمطل العافي فيها، ولا يبخس منها ، ويدفعها عند الإمكان"[2]

ب. الإنشاء:

---

[1] - الكشاف ١/١١٠ وانظر: الدر المصون٢/٢٥٣

[2] - روح المعاني٢/٥٠

١ . **الأمر**:عرف الأمر بأنه: "طلب فعل غير كف على وجه الاستعلاء والإلزام".[١]

وصيغة الأمر قد تستعمل في غير طلب الفعل استعلاء بحسب مناسبة المقام.[٢]

وقد برزت عدة أغراض بلاغية للأمر في جملة (تبع) ، ومنها:

أ . الحث والإغراء:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ العنكبوت: ١٢(اتبعوا..): "أمروهم باتباع سبيلهم' وهي: طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم من التكذيب بالبعث بعد الممات ، وجحود الثواب والعقاب على الأعمال".[٣] وهو أمر فيه إغراء وفتنة لقبول دين المشركين والارتداد عن دين الإسلام " عبر عن ذلك بالإتباع الذي هو المشي خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه" [٤] . وقوله: (ولنحمل) أمر بمعنى الخبر، وأصله: إن تتبعونا نحمل خطاياكم " وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالإتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعا لهم عليه، وبهذا الاعتبار رد

١- الطراز٣/٢٨٢ سحر ك الأقران١/١٣٥

٢ - انظر:الإيضاح١٧٦ تحقيق د.عبد القادر حسين

٣ - جامع البيان٨/٦٤٥٥

٤- إرشاد العقل السليم٧/٣٢

عليهم وكذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾العنكبوت: ١٢[1]

قال العكبري: " (ولنحمل) هذه لام الأمر ، وكأنهم أمروا أنفسهم وإنما عدل إلى ذلك لما فيه من المبالغة في الالتزام "[2]

- من الأمر على سبيل الحث جاء قوله تعالى:﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾الحجر: ٦٥ فإن أمره هنا باتباع أدبارهم ، ونهيهم عن الالتفات ؛ لأنه قد لاحت بوارق الهلاك على قوم لوط، ونجاة أهله إجابة لدعوته عليهم " فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره، وتفريغ باله لذلك، فأمره أن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم فلا تفرط منهم التفاتة احتشاما ولا غيرها من الهفوات في تلك الحالة المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به..."[3]ولعل إيثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالأمر للمبالغة في ذلك ، إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض، ويلزمه عادة الغفلة عن حالة المتأخر...[4]

- ومما اجتمع فيه الحث و التهديد قوله تعالى:﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

---

[1] - أنوار التنزيل٤/١٣٥

[2] - التبيان في إعراب القرآن٢/١٠٣٠

[3] -الكشاف٢/٣١٦

[4] - انظر :إرشاد العقل السليم ٥/٨٤

الزمر:٥٥الخطاب في الآية للناس بامتثال أمر الله عز وجل و اجتناب نهيه، "وقيل : الخطاب للمؤمنين" .[١] والأمر هنا للحث على الا تباع المذكور بدليل ذكر قوله:(من ربكم) ويحمل في ثناياه نوعا من التهديد في ختام الآية(من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) أي :"من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به"،[٢] فهو حث مشوب بتهديد، أو تهديد يدعو إلى الحث على الا تباع قال ابن سعدي:" وكل هذا حث على المبادرة و انتهاز الفرصة " [٣]

ب . **المداومة والثبات:** وفي مقام آخر يأتي الفعل (تبع) دالا على المداومة والثبات في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾يونس: ١٠٩ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بأمره باتباع الوحي والتنزيل على سبيل الدوام والثبات، أي : " فاعمل به واصبر على ما أصابك في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره، وعلى ماناالك منهم حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعل فاصل "[٤] وقد أبرز أبو حيان هذا الغرض بقوله: " وأمره تعالى باتباع نبيه ما يوحى إليه أمر بالديمومة وبالصبر على ما ينالك في الله من أذى الكفار وإعراضهم"[٥]

- وفي سياق آخر للنبي صلى ا لله عليه وسلم جاء الأمر بالاتباع تقوية لقلبه وتثبيتا له في قوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ

---

[١]- روح المعاني٢٤/١٦

[٢] - فتح القدير ٤/ ٤٧١

[٣] - تيسير الكريم الرحمن ٥٣٢

[٤] - جامع البيان٥/٤٢٧٧

[٥] - البحر المحيط٥/١٩٧

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الأنعام: ١٠٦ ومناسبة هذا الأمر لما قبله تتجلى في "أنه سبحانه لما حكى عن الكفار أنهم ينسبونه في إظهار القرآن إلى الافتراء أو أنه يدارس أقواما ويستفيد هذه العلوم منهم ثم ينظمها قرآنا، ويدعي أنه نزل عليه من الله تعالى بقوله: (اتبع ما يوحى إليك من ربك) لئلا يصير ذلك القول من الكفار سببا لفتوره في تبليغ الدعوة والرسالة، والمقصود: تقوية قلبه' وإزالة الخوف الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة".[1] و (ما أوحي إليك) القرآن، فالأمر بالاتباع يفيد الثبات والمداومة على ما ذكر وقد قال أبو السعود: " لما حكى عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات عقب ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما هو عليه، وبعدم الاعتداد بأباطيلهم . أي: دم على ما أنت عليه من اتباع ما أوحي إليك من الشرائع والأحكام التي عمدتها التوحيد".[2] واستشف ابن عاشور من الفعل (تبع) متصلا بالاسم الموصول (ما أوحي) أن يكون الاتباع في الآية مرادا به دوام الامتثال لما أمر به القرآن من الإعراض عن أذى المشركين وعنادهم ..[3]. ومما يؤيد العناية الإلهية بهذا الاتباع جعل الأمر بالاتباع متصلا بالله عز وجل في قوله : (من ربك) وفي ذلك ما فيه من تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم والتلطف معه وتسليته .[4]

ج. التعجيز:

ومن الأمر للتعجيز قوله تعالى:﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ القصص: ٤٩ فالأمر في (فأتوا) للتعجيز.

---

[1] التفسير الكبير ١٠٧/٥

[2] إرشاد العقل السليم ١٧١/٣

[3] التحرير ٤٢٤/٧

[4] انظر: إرشاد العقل السليم ١٧١/٣ التحرير ٤٢٤/٧

قال الفخر الرازي: " وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله "[1]أي :" فأتوا بكتاب من عند الله يهدي أكثر من هدى هذه (أتبعه) معكم".[2] وقال ابن عاشور: " هو تعجيز، فالتقدير: فإن عجزوا ولم يستجيبوا لدعوتك بعد العجز فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، أي: لا غير"[3] وقوله: (أتبعه) جواب للأمر(فأتوا) أي: إن تأتوا به أتبعه ، "وهو مبالغة في التعجيز؛ لأنه إذا وعدهم بأن يتبع ما يأتون به فهو يتبعهم أنفسهم وذلك مما يوفر دواعيهم على محاولة الإتيان بكتاب أهدى من كتابه لو استطاعوه ، فإن لم يفعلوا فقد حق عليهم الحق ووجبت عليهم المغلوبية، فكان ذلك أدل على عجزهم،و أثبت في إعجاز القرآن" .[4]

قال أبو السعود : " ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته ؛ لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة ، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت و الإفحام "[5] .

٢.النهي:

وهو: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.[6] ، وله حرف واحد، وهو: (لا) الجازمة في نحو قولك: "لا تفعل".[7]

وقد أبرز النهي في جملة (تبع) كثيرا من الأسرار البلاغية، منها:

---

١ – التفسير الكبير٨/٦٠٦

٢ – البحر٧/١١٨

٣ – التحرير٢٠/١٣٩

٤ – التحرير ٢٠/١٤٠

٥ – إرشاد العقل ٧/ ١٨

٦– انظر:شروح التلخيص٢/٣٢٤ شرح عقود الجمان ٥٦

٧– الإيضاح١٧٨

أ.الدوام والثبات:

وهو أكثر الأسرار ظهورا في جملة النهي؛ إذ التوجيه والتحذير يستلزمانه، ومن أمثلته:

ـ قوله تعالى:﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ يونس: ٨٩ هذا خبر من الله عز وجل عن إجابته لموسى وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. وقد اشتمل هذا الخبر على أمر ونهي: فأما الأمر ففي قوله تعالى:(فاستقيما) والغرض منه: الدوام والثبات، أي: اثبتا على دين الله وتوحيده وطاعته. وأما النهي ففي قوله تعالى:(ولا تتبعان) أي: لا تسلكان طريقة الذين يجهلون حقيقة وعدي ، فتستعجلان قضائي ؛ فإن وعدي لا خلف له، وإن وعدي نازل بفرعون ، وعذابي واقع به وبقومه . وهذا النهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون وإن كان مشمولا للاستقامة تنبيها على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق اهتماما بالتحذير من الفساد، فهو داخل في الثبات على الدين والديمومة عليه. وفي إيثار الفعل المضارع بنون التوكيد الثقيلة ما يدل على أهمية التأكيد على هذا الفعل المحذر منه وضرورة الابتعاد عنه " تأكيد أمر الوعد ، وإفادة أن في تأخير إنجازه حكما إلهية"[1]

ـ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الجاثية: ١٨ وهنا اجتمع الأمر والنهي في آية واحدة للدلالة على الثبات والاستمرار والدوام . قال الزمخشري:" فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبني على هوى وبدعة وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك"[2]

١- روح المعاني١١/١٧٤

٢ - الكشاف٣/٤٣٨

- وأختم بهذه الآية في سياق خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ المائدة: ٤٨ أسلوب النهي هنا يفيد الدوام والحث على عدم اتباع أهواء اليهود حين حكموه طامعين أن يحكم بما تقرر من عوائدهم مقصود منه : النهي عن الحكم بغير حكم الله إذا تحاكموا إليه.. ليعلمه الناس ، ويبأس الطامعون أن يحكم لهم بما يشتهون ، فخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ولا تتبع أهواءهم) مراد به أن يتقرر ذلك في علم الناس..[1]

أ. التشنيع:

- ومنه قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ النساء: ١٣٥ جاء (تبع) في أسلوب النهي ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ ليفيد الأمر بالقسط والتزامه ، أي: " فلا تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها لغني على فقير أو لفقير على غني إلى أحد الفريقين فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيه بالقسط وأدوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها بالعدل لمن شهدتم له أو عليه "[2] ولعل قوة النهي عن اتباع الهوى تشنيعا للوقوع في الميل والانحراف عن جادة الصواب ؛ ذلك أن اتباع الهوى مرد ومهلك لمن ولغ فيه ؛ لأنه يحمل على الشهادة وعلى الجور في الحكم.. قال أبو حيان: "

---

[1] - انظر :التحرير ٦/٢٢٢

[2] - جامع البيان ٤/٢٥٨٩

لما أمر الله تعالى بالعدل وبالشهادة لمرضاة الله نهى عن اتباع الهوى، وهو ما تميل إليه النفس مما لم يبحه الله تعالى "[1]

- ومن التشنيع قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾النور: ٢١ والنهي هنا منصب على خطوات الشيطان بعدم اتباعها ، والمقصود اتباع الشيطان نفسه تشنيعا من اتباعه ، قال الشهاب : " واتباع خطوات الشيطان كناية عن اتباعه"[2]وامتثال وساوسه، فكأنه قيل: لا تتبعوا الشيطان في شيء من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها.[3] وفيه توجيه وإرشاد، كأنه قيل لمن أخطأ : احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان ، و نهي المكلف عن ذلك لخطورة الشيطان و أثره على المكلف ، و الواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو المبين .

ج. التأكيد:

- برز ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الأعراف: ٣ وهو رسالة تبليغ لهؤلاء المشركين بحسن الاتباع متضمنة أمرا ونهيا، قال أبو السعود: " ولما كان اتباع ما أنزل الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهي عن اتباع غيره ، فقيل: (ولا تتبعوا) ..." [4]والمراد من الموصول (ما أنزل إليكم من ربكم) القرآن الكريم. ويحمل قوله تعالى : (ولا تتبعوا من دونه أولياء) تصريحا لما تضمنه (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) ؛ لأن فيما أنزل إليهم من ربهم أن

---

[1] - البحر ٣٨٦/٣

[2] - عناية القاضي ٢٨/٧

[3] - أنظر: روح المعاني ١٢٤/١٧

[4] - إرشاد العقل السليم ٢١٢/٣

الله واحد لا شريك له ، و أنه الولي ، و أن الذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، أي : مجازيهم ولا يخفى عليه فعلهم ...و المقصود من هـذا النهي : "تأكيد مقتضى الأمر باتباع ما أنزل إليهم اهتماما بهذا الجانـب ، و تسجيلا على المشركين و قطعا لمعاذيرهم أن يقولوا : إننا اتبعنا ما أنزل إلينا ، و ما نرى أولياءنا إلا شفعاء لنا عند الله ".[1]

- و كما في قوله تعالى:﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الأعراف: ١٤٢ أمره حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه ، وأن يصلح في نفسه أو ما يجب أن يصلح من أمر قومه ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين على سبيل التأكيـد لا لتوهم أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل؛ لأن منصب النبـوة منزه عن ذلك.[2] وقال ابن عاشور: " تحذير من الفساد بأبلغ صيغة؛ لأنها جامعة بين نهي - والنهي عن فعل تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه - وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين ".[3] ولا جـرم أن كان قوله تعالى: (ولا تتبع سبيل المفسدين) جامعا للنهي عن ثلاث مراتـب من مراتب الإفضاء إلى الفساد، وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتـاده، وتجنـب الاقتـراب مـن المفسـد ومخالطته.[4] وفي النهي دليل على وجود المفسدين،ولذلك نهاه عـن اتبـاع سبيلهم .[5]

---

[1] - التحرير ١٥/٨

[2] - انظر:البحر ٣٧٩/٤ روح المعاني٤٤/٩

[3] - التحرير ٨٨/٩

[4] - التحرير ٨٨/٩

[5] - انظر:البحر ٣٧٩/٤

٣. الاستفهام :

وهـو: طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، ذكر عبـد القـاهر: " الاستفهام استخبار، والاستخبار هو: طلب من المخاطب أن يخبرك" [١] والألفاظ الموضوعة له: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأيـن، وأنـى، ومتى، وأيان.[٢] وقد تنوعت دلالات الاستفهام في جملة (تبع) ومنها:

أ.التوبيخ:

- كما في قوله تعـالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ غافر: ٤٧ قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع تشير إلى حقيقة التخلي عن هؤلاء الضعفاء ، ولما كان الكبير يحمي تابعه سببوا عن ذلك سؤالهم: (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار؟) فقد كنا نسارع إلى محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا.(٣) قاصـدين بـذلك تخجيـل أولئـك الرؤساء وإيلام قلوبهم . وفي هذا الاستفهام توبيخهم لعجزهم عن ذلك وقد اعتاد الضعفاء اللجأ إليهم في مهمهم حين كانوا في الـدنيا فخـالوا أنهـم يتدبرون أمورهم في ذلك المكان ، ولهذا أجاب الذين استكبروا بمـا يفيـد أنهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ غافر: ٤٨ أي: لـو أغنينا عنكم لأغنينا عن أنفسنا. وإيثار (هل) من بـين أدوات الاسـتفهام للدلالة على شدة رغبة الضعفاء في تحقيق رجاءاتهم من الرؤساء، وفيـه صراحة بالجواب من السائل المخاطب.

---

[١] - دلائل الإعجاز ١٤٠.

[٢] - انظر :الإيضاح١٦٥

[٣] - انظر :جامع البيان٩/٧١٤٧

ب.الإنكار:

ودائما ما يكون الإنكار في الاستفهام مصحوبا بغرض آخر حسب السياق، ومن أمثلته:

- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ طه: ٩٢ – ٩٣هال موسى عليه السلام ارتداد قومه في غيبته وعبادتهم العجل ' فلما رجع إلى قومه بدأ المسألة والتحقيق فيما حدث، ولحكمته بدأ السؤال أولا لقومه ثم توجه إلى خليفته هارون عليه السلام ، وسؤاله لهارون تضمن استفهامين ،هما: (ما منعك ؟) (أفعصيت ؟).. والأول: للإنكار والتهديد كما يقول ابن عاشور: أي: "لا مانع لك من اللحاق بي ؛ لأنه أقامه خليفة عنه فيهم ، فلما لم يمتثلوا أمره كان عليه أن يرد الخلافة إلى من استخلفه".[1] ويقوي هذا ما رد به هارون في الاعتذار حيث قال: ﴿يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ طه: ٩٤ يعني: إنكار أن يكون لهارون سبب يمنعه من اتباع موسى في الغضب لله، والتصدي لردة قومه، أو اللحاق بموسى..[2]. والثاني: (أفعصيت أمري؟) أي: في الصلابة في الدين والمحاماة عليه. " والهمزة للإنكار التوبيخي "[3] والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: ألم تتبعني أو خالفتني فعصيت أمري، فهو استفهام مفرع على الإنكار، وهو إنكار ثان على مخالفة أمره مشوب بتقرير للتهديد.[4]

---

[1] – التحرير ٢٩١/١٦

[2] – انظر :التفسير البلاغي للاستفهام٣٢٦/٢

[3] – إرشاد العقل السليم ٣٨/٦

[4] –انظر :التحرير ٢٩٢/١٦

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ الشعراء: ١١١ والقول من قوم نوح عليه السلام بمثابة أول رد على دعوته لهم إلى الإيمان بالله، بأن جعلوا من اتبع نوحا من الأرذلين، أي: دون ذوي الشرف وأهل البيوتات، وهم سادة وأغنياء استنادا إلى داء الكبر الذي يحملونه. والاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد المشروط، أي: لا نؤمن لك وأتباعك السفلة. قال أبو حيان: " أي: كيف نؤمن وقد اتبعك أراذلنا فنتساوى معهم في اتباعك"[1] وقال ابن عاشور: " والاستفهام في (أنؤمن) استفهام إنكاري"[2]. وإيثار المضارع (نؤمن) لإيقاع الإنكار على الحال والاستقبال، وقد شارك الفعل (تبع) في بيان الحال التي تمنعهم من الإيمان بنوح عليه السلام والانقياد له، ذلك أن أتباعه هم سقط القوم وأراذلهم وأحقرهم، وقد صور ابن كثير مرادهم بقوله: " يقولون: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا"[3].

ج. التقرير:

وقد برز كثيرا في جملة (تبع) خاصة في آيات المقارنات والمفاضلات على سبيل الإقناع والتقرير، وإضافة إلى ذلك يقترن غرض التقرير بأغراض أخرى تتضافر في إبراز مدلول السياق كما سنراه في الأمثلة القادمة، ومن أمثلته:

- قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ يونس:

---

[1] - البحر ٣٠/٧

[2] - التحرير ١٩١/١٠

[3] - تفسير ابن كثير ٣٧٥/٣

الاستفهام في الآية للتقرير و التوبيخ كما ذكر غير واحد من المفسرين ، قال الزجاج : " أي : قرروا فقيل لهم : أي أولى بالاتباع ؟ الذي يهدي أم الذي لا يهدي إلا أن يهدى "[1] وقوله: (أفمن يهدي إلى الحق) هو الله عز وجل ، وقوله: (لايهدي) بكسر الهاء ، أصله: يهتدي، فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين، والمراد به: الأصنام فإنها لا تهتدي إلى شيء، أي: لا يهتدي بنفسه فضلا عن هداية غيره، وفيه من المبالغة ما لايخفى[2] .

قال القرطبي مبرزا السر في الاستفهام : " ثم قل لهم موبخا ومقررا..."[3] والفاء في (أفمن) لترتيب الاستفهام على ما سبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم. وقد شارك الفعل (تبع) في التوبيخ لهؤلآء المشركين عن طريق الموازنة بين الهداية إلى الحق وعدمها، مما يجعل العقل مقرا ومقتنعا بطريق الهداية الصحيح عن طريق الاستدلال بنقصان آلهتهم عن الإرشاد إلى الحق، وبأن الله هو الهادي إلى الكمال والحق.

- ومن التقرير والنفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾محمد: ١٤جاءت هذه الآية تنفي وتقرر، تنفي المساواة بين الفريقين في الدار الآخرة وتقرر أن الذين كفروا يعبدون أهواءهم ، كأنها آلهة يتمثل أمرها، ويجتنب نهيها، وقد سيق الفعل (تبع) موضحا أثر الآلهة عليهم اتباعا من غير بصيرة ولا عقل. قال الزجاج: " وهذه ألف توقيف وتقرير؛ لأن الجواب معلوم كما إذا قلت: من يفعل السيئات يشق ومن يفعل الحسنات يسعد، ثم قلت: الشقاء أحب إليك أم

---

[1] - معاني القرآن و إعرابه ٣/ ١٩

[2] - إرشاد العقل السليم٤/١٤٣

[3] - الجامع لأحكام القرآن٨/٣١٦

السعادة؟ فقد علم أن الجواب : السعادة. فهذا مجرى ألف التوقيف والتقرير"[1] وقال أبو السعود: " تقرير لتباين حال فريقي المؤمنين والكافرين، وكون الأولين في أعلى عليين والآخرين في أسفل سافلين، وبيان لعلة ما لكل منهما من الحال "[2]ويحمل هذا الاستفهام أيضا بشارة بحال المؤمنين ونذارة بحال الكافرين . وأشار بعض المفسرين إلى تحقق دلالة الإنكار أيضا من سياق الآية' إنكار المماثلة بين الفريقين[3]ولا مانع من ذلك ، فهو نفي مشوب بإنكار مما يزيد في المبالغة في عدم تحقق المساواة وتفضيل الفريق الأول.

د. النفي:

- جاء ذلك في قوله تعالى﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القصص:٥٠ والاستفهام في قوله﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾إنكاري للنفي ، أي: لا أضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) أي: "هو أضل من كل ضال".[4] ووجه كونه لا أضل منه أن الضلال في الأصل خطأ الطريق ، وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة أو الخطر أو الهلاك با لكلية على حسب تفاوت شدة الضلال. واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر و مراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من

---

[1] – معاني القرآن وإعرابه٥/٩

[2] – إرشاد العقل السليم ٨/٩٥

[3] – ينظر :عناية القاضي٨/٤٩٥ إرشاد العقل السليم٨/٩٥ التحرير٢٦/٩٢

[4]– إرشاد العقل السليم٧/١٨روح المعاني٢٠/٩٣

أحوال الضر بدون تحديد و لا انحصار . فلا جرم أن يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال فصاحبه أشد الضالين ضلالا.[1]

- وقوله تعالى :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ النساء: ١٢٥ساعد الفعل (تبع) على تحقيق الأفضلية للدين القويم من خلال اتصاله بجملة الاستفهام في صدر الآية " وهذا قضاء من الله – جل ثناؤه– للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل غيره وأهلها"[2] ؛ وذلك لأن دين الإسلام مبني على أمرين:الاعتقاد والعمل، فالله تعالى أشار إلى الأول بقوله:(أسلم وجهه لله) ...وأشار إلى الثاني بقوله: (وهو محسن) أي: في الانقياد لربه بأن يكون آتيا بجميع ما يكلفه به على وجه الإذلال والخشوع.[3]

"ومن تأمل هذه الجملة الاستفهامية على اختصارها أيقن باحتوائها على منتهى ما يبلغ إليه القوة البشرية في جميع المقاصد المتعلقة بالدين، فالله سبحانه لما ذكر في الآية المتقدمة أن الفوز بالجنة والسعادة الأبدية منوطة بالاشتغال بالأعمال الصالحة حال كونه مؤمنا بقلبه آت على هذه الطريقة في هذه الآية ن وشهد بكونها في غاية الحسن والكمال ذكر أنها هي الطريقة التي كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام عليها"[4]ويحمل هذا النفي في الآية إنكارا واستبعادا لأن يكون أحد أحسن دينا ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها، يرشدك إليه العرف المطرد والاستعمال الفاشي، فإنه قيل: من أكرم من

---

[1] – انظر:التحرير ٢٠ /١٤١

[2] – جامع البيان٤/٢٥٦٢

[3]– انظر:حاشية زاده على البيضاوي٣/٤١٨

[4] –حاشية زاده على البيضاوي٣/٤١٨وانظر: أنوار التنزيل٢/١١٩

لنفسه، قال الألوسي:" خطابهم بـ(يا قوم) لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته "[1]

- مؤمن آل فرعون: في سياق آخر تأتينا قصة مؤمن آل فرعون الذي كان له أكثر من حوار مع قومه لإقناعهم بالحق، وإبعادهم عن الباطل، ومن تلك المشاهد: قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ غافر: ٣٨ فقد ابتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم، ويستصغي أسماعهم ، وبعنوان أنهم قومه لتصغى إليه أفئدتهم .[2] والمراد من هذه المقدمة أن يحثهم على اتباعه " إن اتبعتموني فقبلتم ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه، وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى"[3] فهذا النداء الاستعطافي مقصود منه: ترغيب قومه في اتباع سبيل الرشاد، الذي يوصل سالكه إلى المقصود، وكأن الاتباع مشروط بالهداية كما يلوح به قوله تعالى: (أهدكم) جواب الأمر، أي: إن تتبعوني أهدكم..

- نبي الله إبراهيم مع أبيه وفي سياق ثالث يستخدم إبراهيم عليه السلام مع أبيه أسلوب النداء ليصل إلى حثه على اتباعه، وترك عبادة الأصنام والنجوم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ مريم: ٤٣

---

[1] روح المعاني٢٢/٣٦٦

[2] التحرير ٢١/١٤٨

[3] جامع البيان٩/٧١٤٠

وعبارة (يا أبت) تحمل من الرق واللطف ما لا تؤديه لفظة غيرها " ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه"[1]

أنظر: حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن. قال أبو حيان: " وفي قوله: (يا أبت) تلطف واستدعاء بالنسب"[2] وبعد هذه المقدمة وصل إلى المقصود بقوله: (فاتبعني أهدك صراطا سويا) أي: طريقا مستقيما موصلا

---

[1] الكشاف ٣/٤١١٣

[2] البحر المحيط ٦/١١٨٢

وعبارة (يا أبت) تحمل من الرق واللطف ما لا تؤديه لفظة غيرها " ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه"[1]

أنظر: حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن. قال أبو حيان: " وفي قوله: (يا أبت) تلطف واستدعاء بالنسب"[2] وبعد هذه المقدمة وصل إلى المقصود بقوله: (فاتبعني أهدك صراطا سويا) أي: طريقا مستقيما موصلا

---

[1] الكشاف ٢/٤١٣

[2] البحر المحيط ٦/١٨٣

إلى أسنى المطالب، منجيا عن الضلال المؤدي إلى مهاوي الردى والمعاطب.. فقد تضافرت الجملتان السابقتان : جملة النداء والجملة الخبرية بعدها في حثه على الاتباع الذي تحصل به النجاة.

ب. التنبيه والعناية:

الأصل في جملة النداء أن تكون داعية إلى الإقبال، منبهة إلى ما بعدها من أمور عظيمة، وهذا ما تحقق في جملة (تبع) المفتتحة بأدوات النداء من مثل :

_ قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنفال: ٦٤ فهذه الآية شروع في بيان كفايته تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في جميع أموره وأمور المؤمنين، أو في الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة إثر كفايته تعالى إياه صلى الله عليه وسلم في مادة خاصة.[1] وتصدير الجملة بحرفي النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها، وتسميته عليه الصلاة والسلام بالنبي فيه مزيد عناية وتشريف أيضا بأن الله يكفي الأمة لأجله.

- ومن نداء النبي عليه الصلاة والسلام إلى نداء الناس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ البقرة: ١٦٨ بنداء عام توجيها لهم لأكل

[1] إرشاد العقل السليم٤/٣٣

الحلال من الطعام ، وتحذيرا من اتباع خطوات الشيطان الذي يوبق فيهلك ، ويورد موارد العطب .. فالنداء هيأ لما بعده من توجيه " كأنه قيل لمن أبيح له الأكل على الوصف المذكور احذر أن تتعداه إلى ما يدعوك إليه الشيطان..."[1]

وهل النداء عام أو خاص؟ مما يلحظ من السياق أن لفظ النداء عام، ولذلك قال الحسن: نزلت في كل من حرم على نفسه شيئا لم يحرمه الله عليه ، ومن قال بأنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب أو بني مدلج حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام " فإن صح هذا كان السبب خاصا واللفظ عاما، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب "[2].

ج. التضرع: كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ آل عمران: ٥٣ قال أبو السعود: " تضرع إلى الله تعالى ، عرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار أمرهم"[3]

٣. العرض والتحضيض:

العرض، هو: "طلب الشيء طلبا بلا حث ولا تأكيد، والتحضيض: طلب الشيء مع تأكيد وحث".[4] ، وهما مولدان من الاستفهام؛ لأنهما لا يكونان إلا مع آلته، فيكونان داخلين فيه.[5]

---

[1] التفسير الكبير ٢/١٨٦

[2] البحر ١/٦٥٢

[3] إرشاد العقل السليم ٢/٤٢

[4] مواهب الفتاح ٢/٣٣٠

[5] انظر: حاشية الدسوقي على شرح السعد ٢/٣٣٠

جاء ذلك في (لولا) كما في الآيات التالية:

- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ طه: ١٣٤

(لولا) حرف تحضيض مستعمل في اللوم أو الاحتجاج ؛ لأنه قد فات وقت الإرسال. قال القرطبي: " (لولا) ، أي: هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك.."[1] وانتصب (فنتبع) على جواب التحضيض باعتبار تقدير حصوله فيما مضى. قال العكبري: " وقوله: (فنتبع آياتك) جواب الاستفهام "[2] و الآية سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لايمكن إنكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة .[3]

- وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ القصص: ٤٧أي: لولا ذلك لم يحتج إلى إرسال الرسل ، ومواترة الاحتجاج ، أو: لولا أن يقول أولئك الذين أرسلتك إليهم يامحمد، لو حل بهم بأسنا أو أتاهم عذابنا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من قبل أن يحل بنا سخطك، وينزل بنا عذابك فنتبع أدلتك وآي كتابك

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ٢٨١/١١

[2] التبيان في إعراب القرآن ٩١٠/٢

[3] انظر :جامع البيان٦٤٠/٨

ونكون من المؤمنين بألوهيتك، لعاجلناهم العقوبة على شركهم، ولكن بعثناك إليهم نذيرا.[1]

فـ (لولا) الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، والفاء الأولى في قوله: (فيقولوا) عاطفة، والفاء الثانية في قوله: (فنتبع آياتك) جواب لولا لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل، والباعث والمحضض من واد واحد.[2] والدليل على أن (لولا) الثانية تحضيضية كونها مما أجيبت بالفاء تشبيها لها بالأمر مفعول (يقولوا) المعطوف على (تصيبهم) بالفاء المعطية معنى السببية المنبهة على أن القول هو المقصود بأن يكون سببا لانتفاء ما يجاب به، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة[3] ويلاحظ أن العقوبة قد جعلت هي السبب في الإرسال لا القول لدخول حرف الامتناع(لولا) عليها دونه؛ ذلك أن القول هو المقصود بأن يكون سببا في الإرسال كما ذكر ولكن لما كانت العقوبة هي السبب للقول وكان وجودها بوجوده جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها (لولا) والفائدة من ذلك: " أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولا، وغنما السبب في قولهم هذا، هو: العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم، ورسوخه فيهم ما لا يخفى"[4]

---

[1] إرشاد العقل السليم ٥٢/٦

[2] الكشاف١٧١/٣

[3] أنوار التنزيل١٢٩/٤

[4] الكشاف١٧٢/٣

٦.القسم:

وهو: "يمين يقسم بها الحالف ليؤكد بها شيئا يخبر عنه من إيجاب أو جحد". [١] وتتنوع جملة القسم المرتبطة بـ (تبع) في دلالتها البلاغية حسب المقام والسياق:

- فقد تجيء رابطة ما قبلها بما بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾ طه: ٨٩ - ٩٠ بدئت الآية بجملة القسم المؤكدة، وتخللها القصر بـ إنما (إنما فتنتم بـه) وتعريف الطرفين (ربكم الرحمن) لتصل من ذلك إلى ضرورة اتباعه عليه السلام. قال أبو السعود: " (ولقد قال لهم...) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الإنكار، والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي: وبالله لقد نصح لهم هارون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم ، و خطابه إياهم بما ذكر من المقالات ، و قيل: من قبل قول السامري كأنه عليه السلام أومأ بصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع إلى تحذيرهم "[٢]

و لذلك ربط الجملتين بالفاء في قوله(فاتبعوني) حتى ترتب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين ، أي : إذا كان الأمر كذلك فاتبعوني في الثبات على الدين .[٣] وتأكيد الخبر بحرف التحقيق و لام القسم لتحقيق

---

[١] اللسان (قسم)٤٨١/١٢، المخصص لابن سيده١١٠/١٣

[٢] إرشاد العقل السليم ٣٦/٦- ٣٧

[٣] انظر:إرشاد العقل السليم ٣٧/٦ ، روح المعاني ١٦/ ٢٥٠

إبطال ما في كتاب اليهود من أن هارون هو الذي صنع لهم العجل ، و أنه لم ينكر عليهم عبادته .[1]

- وقد تأتي جملة القسم مفيدة الوصول إلى نتيجة حتمية واقعة، كما في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾الأعراف: ٩٠ فهذا جانب من الحوار بين الجماعة الكافرة من قوم شعيب إلى من آمن به وصدقه، يستخدم فيه القسم كنتيجة حتمية على صحة كلامهم ووقوعه: (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) " لاستبدالكم الضلالة بالهدى كقوله تعالى:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ البقرة: ١٦ ، وقيل: تخسرون باتباعه فوائد النجش والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية"[2]

وقد جاء الفعل (تبع) في جملة القسم لتحقق الجواب الآتي بعده (إنكم إذا لخاسرون) واللام في (لئن) الموطئة للقسم، وجواب القسم (إنكم إذا لخاسرون)، والمقصود: تثبيط المؤمنين عن الإيمان بشعيب وتنفيرهم من منهجه عن طريق التوكيد القسمي في الآية.

- ومثله الآية:﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

---

[1] انظر:التحرير ١٦/٢٩٠

[2] الكشاف٢/٧٧

﴿ البقرة: ١٤٥ من هذا القبيل في تحقيق القسم بـ (تبع) للنتيجة الحتمية المحققة في جوابه (إنك إذا لمن الظالمين) بالتماسه صلى الله عليه وسلم رضا هؤلآء اليهود والنصارى الذين قالوا له ولإصحابه ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ البقرة: ١٣٥ واتباع قبلتهم والمقصود منه:" لطف للسامعين، وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق"[١] والقسم المقدر واللام الموطئة للقسم هما وجوه تاكيد التهديد و المبالغة في التخويف من اتباع الهوى. قال زاده: " وفي تخصيصه صلى الله عليه وسلم بالنهي عن مثله مع كونه منهيا عنه بالنسبة إلى كافة المكلفين تنبيه على أن ضد هذا المنهي عنه أمر عظيم الشأن ، جدير بالاهتمام به فلذلك أوثر بالتوصية والأمر بمحافظة من هو أعظم الناس منزلة عند الآمر، وفيه تحريض للغير على محافظته ، والاجتناب عن إضاعته على آكد وجه وأبلغه."[٢] ومن أهداف جملة القسم في الآية: تحقيق نفي الطمع في اتباعهم القبلة لدفع توهم أن يطمع السامع باتباعهم؛ لأنهم يعلمون أحقيتها، فلذلك أكدت الجملة الدالة على نفي اتباعهم بالقسم واللام الموطئة وبالتعليق على أقصى ما يمكن عادة.[٣]

والهدف العام: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن متابعة أهل الكتاب له، فقد " سلاه عن قبولهم الحق بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعاداة

---

[١] الكشاف ١/١٠١

[٢] حاشيته على البيضاوي ١/٣٧١

[٣] انظر :التحرير ٢/٣٥

إلى رتبة لو جئتهم فيها بجميع المعجزات فأحرى ألا يتبعوك إذا جئتهم بمعجزة واحدة"[1]

- وغالبا ما يكون الغرض من القسم التأكيد حاملا معه أغراضا أخرى يهدف إليها السياق، مثل قوله تعالى﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ البقرة: ١٢٠ اللام في (لئن) موطئة للقسم ، وهي: تشعر بقسم مقدر قبلها. جاءت الجملة لتوكيد الخبر وتحقيقه بتحذيره عليه الصلاة والسلام وأمته من بعده استدناء اليهود أو النصارى واسترضاءهم بشيء طمعا في إسلامهم.

- وفي جملة (تبع) القسمية برز التهديد والوعيد عنصرا قويا في تحقيق الغرض، كما في قوله تعالى:﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ الأعراف: ١٨ القسم في الآية صادر من الله عز وجل، قال ابن جرير: " وهذا قسم من الله- جل ثناؤه – أقسم أن من اتبع من بني آدم عدو الله إبليس و أطاعه ، و صدق ظنه عليه أن يملأ من جميعهم _يعني من كفرة بني آدم أتباع إبليس و ذريته_ جهنم " (٢)و الأسلوب أسلوب قسم فاللام في قوله{لمن تبعك } لام القسم تدخل توطئة للأمر "و الكلام بمعنى الشرط و الجزاء كأنه قيل : من تبعك أعذبه، فدخلت اللام للمبالغة و التوكيد، ولام (لأملأن)لام القسم و لام (من تبعك) توطئة لها " (٣)و جواب الشرط محذوف يدل

---

[1] البحر ٦٠٤/١

[2] جامع البيان ٣٤٦٢/٥

[3] معاني القرآن و إعرابه ٣٢٥/٢

عليه جواب القسم . والتقدير : أقسم من تبعك منهم لأملأن جهنم منهم و منك .و الآية تحمل وعيدا شديدا لمن تبع إبليس ، و انقاد لمسلكه .

٧. الترجي :

وهو: "ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله"،(١) وحرفه الموضوع له (لعل).

وقد برز منه في جملة (تبع) شاهد واحد بأداة الترجي (لعل)، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الشعراء: ٤٠ جاءت الآية بأسلوب الترجي، كأنها تصور استبطاء هؤلاء القوم وأولئك الناس في الاجتماع، وتطلب استعجالهم واستحثاثهم، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف.(٢) قال ابن جرير: " ومعنى (لعل): كي، يقول: كي نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين".(٣) وهو يشير إلى أن (لعل) هنا تعليل للاجتماع. واتباع السحرة، أي: في دينهم إن غلبوا موسى في دينه، وموافقتهم في مدعاهم " والترجي باعتبار الغلبة المقتضية للاتباع، ومقصودهم الأصلي: ألا يتبعوا موسى ، لا أن يتبعوا السحرة".(٤) يعني: أن من جملتهم فرعون وهو لا ترجي منه ولا يترجى اتباعهم، فالترجي واحتمال الوقوع للغلبة لا للاتباع ؛ لأنه غير متصور منه، بل من اتباعه بحضرته، إلا باعتبار أن اتباعهم اتباع له لكونهم أتباعه.(٥)

قال ابن عاشور مبينا أثر الترجي الحاصل في الآية : " ورجوا اتباع السحرة ، أي: اتباع ما يؤيده سحر السحرة، وهو إبطال ما جاء به

---

[١] المطول٢٢٦

[٢] انظر :الكشاف٣/١١٣

[٣] جامع البيان٨/٦١٩٩

[٤] أنوار التنزيل٤/١٠٣

[٥] انظر :عناية القاضي٧/١٧٩

موسى، فكان قولهم: {لعلنا نتبع السحرة}كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه، وليس المقصود أن يكون السحرة أيمة لهم؛ لأن فرعون هو المتبع"(١)

ثانيا:التقديم والتأخير:

التقديم: "هو تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى، لتؤدي غرضا بلاغيا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي".(٢) وقد وصف الإمام عبد القاهر هذا الباب بأنه: "كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه؛ ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ؛ أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"(٣). وباب هذه صفاته جدير بالدراسة والتأمل والوقوف عند لطائفه، خاصة في كتاب الله عز وجل المصدر الأعلى للفصاحة والبلاغة.

ومن أسراره في جملة (تبع):

- تقديم المسند إليه، في قو له تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ الشعراء: ٢٢٤ فقد تقدم المسند إليه{الشعراء} على المسند الفعلي{يتبعهم}، وقد عد ابن عاشور غرض التقديم: مجرد التقوي والاهتمام بالمسند إليه للفت السمع إليه، والمقام مستغن عن الحصر؛ لأنهم إذا كانوا

---

١ التحرير ١٩/١٢٦

٢ بلاغة الكلمة والجملة والجمل١٠٨

٣ دلائل الإعجاز١٠٦

يتبعهم الغاوون فقد انتفى اتباعهم عن الصالحين؛ لأن شأن المجالس أن يتحد أصحابها في النزعة.[1]

وجعله الزمخشري مفيدا الحصر" ومعناه:أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض، والقدح في الأنساب ، والنسيب بالخرم والغزل والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون"[2] على اعتبار أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد تخصيصه بالخبر(المسند)، أي: قصر مضمون الخبر عليه.

وهو أولى ، وهو المفهوم من كلام ابن جرير الذي أوله بالقصر الإضافي، فقال: " يتبعهم أهل الغي لا أهل الرشاد والهدى" [3]

- تقديم المسند، في قوله تعالى:﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ القصص: ٣٥ ففي قوله تعالى: { بآياتنا} الباء من صلة {الغالبون} ومعنى الكلام: أنتما ومن اتبعكما الغالبون فرعون وملأه بآياتنا، أي: "بحجتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما".[4] وقال ابن كثير: " ولا شك أن هذا المعنى

---

[1] انظر :التحرير ١٩/٢٠٨

[2] الكشاف٣/١٣١

[3] جامع البيان٨/٦٢٥٥

[4] جامع البيان٨/٦٣٩٣

صحيح"[1] والتقديم هنا للحصر، وقيل: للفاصلة [2]، وقيل: للاهتمام بعظمة الآيات التي سيعطيانه .[3]

- تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ غافر: ٤٧ أشار ابن عاشور إلى سر تقديم قولهم:{إنا كنا لكم تبعا} على طلب التخفيف عنهم من النار بأنه " مقدمة للطلب لقصد توجيهه وتعليله، وتذكيرهم بالولاء الذي بينهم في الدنيا ، يلهمهم الله هذا القول لافتضاح عجز المستكبرين أن ينفعوا أتباعهم تحقيرا لهم جزاء على تعاظمهم الذي كانوا يتعاظمون به في الدنيا"(٤) إضافة إلى ما تفيده من إلزام الضعفاء رؤساءهم بتحمل عبء متبوعيتهم، والوفاء بها كما وعدوهم، ولذلك قدموا ذكرها وجعلوها توطئة للوفاء بالتزاماتها.

أما تقديم الجار والمجرور {لكم} على{تبعا} ؛ لأنه الأنسب في مقام التبكيت والتوبيخ والتقريع، وفيه معنى القصر والاختصاص، أي: تبعا لكم لا لغيركم.ومثله قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الإسراء: ٦٩ .

---

[1] تفسير القرآن العظيم٣/٤٢٨

[2] انظر:روح المعاني١٥/١٢٩

[3] انظر:التحرير١٠/٣٨٩

[4] التحرير٢٤/١٦١

ثالثا: التقييد:

وقد اجتمع في جملة (تبع) قيود في الصفة وفي الحال وفي المجرور وفي الشرط وفي غيره.

١. التقييد بالصفة:

- قال تعالى:﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٣ فقوله:{يتبعها أذى}في محل جر صفة لـ (صدقة).[١] ، يعني: يشتكيه عليها ويؤذيه بسببها. وهذه الآية مقررة لترك اتباع المن والأذى للصدقة [٢]وقد بين الفعل (تبع) أثر الصدقة المشوبة بضرر ما يتبعها ، وخلوص الأولين من الضرر. قال أبو حيان: " واشترك القول المعروف والمغفرة مع الصدقة التي يتبعها أذى في مطلق الخيرية ، وهو النفع وإن اختلفت جهة النفع ، فنفع القول المعروف والمغفرة باق، ونفع تلك الصدقة فان"[٣]

فالقول المعروف إحسان، وصدقة بالقول والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة.

٢. التقييد بالحال:

- قال تعالى:﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الروم: ٢٩ فقوله:{بغير علم}أي:

---

[١] الدر المصون٢/٥٨٤

[٢] روح المعاني٣/٣٤ فتح القدير ١/٢٨٥

[٣] البحر ٢/٣٢٠

جهلا منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته. وقد قيد الاتباع بكونه:{بغير علم}تشنيعا لهذا الاتباع ؛ فإنه اتباع شهوة مع جهالة ، فإن العالم إذا اتبع الهوى كان متحرزا من التوغل في هواه لعلمه بفساده.(١) قال الزمخشري:" اي: اتبعوا اهواءهم جاهلين؛ لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه ، وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء"(٢).

- وقال تعالى:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾

القصص: ٥٠

قيد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله لزيادة التقريع والإشباع في التشنيع والتضليل وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بنية الاستحالة.(٣) وجملة:{بغير هدى} في موضع الحال، وهذه الحال قيد في اتباع الهوى؛ لأنه قد يتبع الإنسان ما يهواه ويكون الذي يهواه فيه هدى من الله؛ لأن الأهواء كلها تنقسم إلى ما يكون فيه هدى وما لا يكون فيه هدى، فلهذا قيد بهذا الحال.(٤)

والباء للملابسة، قال ابن عاشور:" وهو حال كاشفة لتأكيد معنى الهوى؛ لأن الهوى لا يكون ملابسا للهدى الرباني ولا صاحبه ملابسا له؛ لأن الهدى يرجع إلى معنى إصابة المقصد الصالح".(٥)

---

١ انظر:التحرير ٢١/٨٨

٢ الكشاف٣/٢٠٤

٣ إرشاد العقل السليم٧/١٨روح المعاني٢٠/٩٣

٤ انظر:البحر٧/١١٩

٥ التحرير٢٠/١٤١

٣. **التقييد بالمجرور:**

- **قال تعالى:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة: ١٠٠ أي: من اتبعهم يوم القيامة فإن الله يرضى أفعالهم، وهم يرضون ما جازاهم الله به. والباء في قوله:{بإحسان} للملابسة،أي: ملتبسين به، والمراد به كل خصلة حسنة.[١] وقد شارك الفعل (تبع) في إبراز الشرط لمن أراد الحصول على الأجر في قوله:{والذين اتبعوهم بإحسان}بأن" شرط على التابعين شرطا ... شرط عليهم أن يتبعوهم بإحسان ، وهو: أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة، ولا يقتدوا بهم في غير ذلك. أو : يقال: هو أن يتبعوهم بإحسان في القول وألا يقولوا فيهم سوءا، وألا يطعنوا فيما أقدموا عليه.."[٢] وقيد سبحانه تبعيتهم بأنها بإحسان، فهي ليست تبعية مطلقة ولكنها تبعية مصاحبة للإحسان.

٤. التقييد بالشرط:

وأدوات الشرط التي عني بها البلاغيون، هي: (إن) و(إذا) و(لو)، ولكل أداة استعمال يخصها، فلابد من التفريق بينها؛ فإن استعمال بعضها مكان بعض معيب عند ذوي الفصاحة، قال الخطيب القزويني: " وأما تقييده بالشرط فلاعتبارات لا تعرف إلا بمعرفة ما بين أدواته من التفصيل... أما (إن) و(إذا) فهما للشرط في الاستقبال، لكنهما يفترقان في شيء، وهو أن الأصل في (إن) أن لا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه، كما تقول لصاحبك:"إن تكرمني أكرمك" وأنت لا تقطع أنه يكرمك.

---

[١] إرشاد العقل السليم٤/٩٧

[٢] حاشية زاده٤/٠٨٥روح المعاني١١/٧

والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه، كما تقول: "إذا زالت الشمس آتيك".ولذلك كان الحكم النادر موقعا لـ(إن)؛ لأن النادر غير مقطوع به في غالب الأمر، وغلب لفظ الماضي مع (إذا) ؛ لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع ؛ نظرا إلى اللفظ."(١) وفي (لو) يقول: " وأما (لو) فهي للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط، فيلزم انتفاء الجزاء،كانتفاء الإكرام في قولنا:" لو جئتني أكرمتك"، ولذلك قيل:هي، لامتناع الشيء لامتناع غيره. ويلزم كون جملتيها فعليتين، وكون الفعل ماضيا..."(٢)

أ. إذا الشرطية:

- قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾لقمان: ٢١ ذكر الفخر الرازي "أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح ؛ فإن النبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم".(٣) وإيثار(إذا) لتحقيق الجواب الذي يقابلون به من يدعوهم إلى منهج الله، وبناء الفعل{قيل} لما لم يسم فاعله لتحقيق الغرض من الفعل دون التوقف على الفاعل؛ لأن المعول عليه هو دعوتهم إلى ما أنزل الله.

ب. إن الشرطية:

- قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾آل عمران: ٣١ رتب تعالى على محبتهم له و اتباع

---

١ الإيضاح١٢١

٢ الإيضاح١٢٧

٣ التفسير الكبير١٢٥/٩

رسوله صلى الله عليه و سلم محبته لهم ، و ذلك أن الطريق الموصل إلى رضاه تعالى إنما هو مستفاد من نبيه فإنه المبين عن الله ؛إذ لا يهتدي العقل إلى معرفة أحكام الله في العبادات و لا في غيرها بل رسوله هو الموضح لذلك "فجعل محبة الله فعلا للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه السلام مبني على كون الرأفة تستلزم المحبة ، أو هو مبني على أن محبة الله أمر مقطوع به من جانب المخاطبين ، فالتعليق عليه تعليق شرط محقق، ثم رتب على الجزاء مشروط آخر وهو قوله : {يحببكم الله }لكونه أيضا مقطوع الرغبة من المخاطبين ؛ لأن الخطاب للمؤمنين و المؤمن غاية قصده تحصيل رضا الله عنه و محبته إياه "[1]

-وقال تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الشعراء: ٤٠ جيء في شرط {إن كانوا هم الغالبين } بحرف (إن) لأنها أصل أدوات الشرط ولم يكن لهم شك في أن السحرة غالبون . وهذا شأن المغرورين بهواهم العمي عن النظر في تقلبات الأحوال أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم و لا يأخذون العدة لاحتمال نقيضه.[2]

- وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ القصص: ٤٩

فقوله{إن كنتم صادقين} أي: في زعمكم إن هذين الكتابين سحران، وأن الحق في غيرهما.[3] وهذاالشرط يقول عنه الزمخشري: " إنه شرط المدل

---

[1] التحرير ٣/٢٢٤

[2] التحرير ١٩/١٢٦

[3] جامع البيان٨/٦٤٠٤

بالأمر المتحقق لصحته ؛ لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك ، ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم بهم "[1]وقال البيضاوي : " وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام و التبكيت ، و لعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم "[2]و مراد الإمامين أن مثل هذا الشرط إنما يذكر ممن يثق بأمره ، و يعتمد على صحته كقول العامل لمن أخر جعله : إن لم أعمل لك فقل : اقطع العمل .[3]

وهذا من التعليق على ما تحقق عدم وقوعه، فالمعلق حينئذ ممتنع الوقوع كقولـــه:﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الزخـــرف: ٨١ ولكونه ممتنع الوقوع أمر الله رسوله أن يقوله " وقد فهم من قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ القصص: ٥٠ ومن إقحام﴿ فَاعْلَمْ ﴾ القصص: ٥٠ أنهم لا يأتون بذلك ألبتة ، وهذا من الإعجاز بالإخبار بالغيب"[4]وفيـــه تنـــزل للخصم زيادة في إقامة الحجة عليه.[5]وعلى القول بأن مجيء الشك للتهكم بهم يكون قد جعل صدقهم المحال عنده محتملا.[6]

ج. لو الشرطية:

– قال تعالى:﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ

---

[1] الكشاف ١٧٣/٣

[2] أنوار التنزيل ١٢٩/٤

[3] حاشية زاده ٤٥٩/٦

[4] التحرير ١٤٠/٢٠

[5] حاشية الصاوي على الجلالين ٣٠٨/٤

[6] عناية القاضي ٣٦٠/٧

لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ التوبة: ٤٢ فـ (لو) الشرطية قيدت ما بعدها من شرط، ومعنى الكلام: لو كانت المنافع قريبةً والسفر قريبا لاتبعوك طمعا منهم في الفوز بتلك المنافع، ولكن طال السفر فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة، بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فلهذا السبب تخلفوا.

والمقصود: تقرير كونهم متثاقلين، وأنهم مع كل ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد تخلفوا عن الغزوة في تبوك.[1] وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على تحققه عند توسط السفر فقط [2]، وإشارة إلى دناءة هممهم، وسوء فعلهم.

- وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ آل عمران: ١٦٧ أشارت الآية إلى موقف عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه المنافقين، وكانوا رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه في غزوة أحد" فقال المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ! فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكنا معكم عليهم، ولكنا لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتال، فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم:{لو نعلم قتالا لاتبعناكم} غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به.[3]

وقد جاءت(لو) الشرطية في معرض الامتناع عن القتال، وجاء جوابها (تبع) لتحقيق غايتهم من عدم القتال تحقيقا لمرادهم. قال الزمخشري

---

[1] التفسير الكبير ٥٦/٦

[2] إرشاد العقل السليم ٦٧/٤

[3] جامع البيان ٢٠٥٢/٣

موضحا موقفهم: " لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا{لاتبعناكم}يعنون: أن ما انتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء ، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة"[1] وجاء الجواب {لاتبعناكم}فدل ذكره على غاية الخزي و النفاق ، وأنه كان غرضهم من هذا الجواب إما التلبيس وإما الاستهزاء.[2]

و{نعلم} في معنى: علمنا؛ لأن (لو) من القرائن التي تخلص المضارع لمعنى الماضي إذا كانت حرفا لما كان سيقع لوقوع غيره ، فإن كانت بمعنى (إن) الشرطية تخلص المضارع لمعنى الاستقبال . و مضمون هذا الجواب : أنهم علقوا الاتباع على تقدير وجود علم القتال ، و علمهم للقتال منتف ، فانتفى الاتباع ، و إخبارهم بانتفاء علم القتال معهم إما على سبيل المكابرة و المكيدة إذ معلوم أنه إذا خرج عسكران و تلاقيا وقد قصد أحدهما الآخر من شقة بعيدة في عدد كثير و عدد ، و خرج إليهم العسكر الآخر للقائهم قبل أن يصلوا بلدهم ، واثقين بنصر الله ، مقاتلين في سبيل الله ، و إن كانوا أقل من أولئك أنه سينشب القتال لا محالة ، فأنكروا علم ذلك رأسا ، لما كان عليه من النفاق و الدغل و الفرح بالاستيلاء على المؤمنين ، وإما على سبيل التخطئة لهم في ظنهم أن ذلك قتال في سبيل الله و ليس كذلك و إنما هو رمي النفوس في التهلكة ...[3]

" وفي جعلهم التالي مجرد الاتباع دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع "[4]

---

[1] الكشاف ٢٩٩/١

[2] التفسير الكبير ٤٢٣/٣

[3] البحر ١١٤/٣-١١٥

[4] إرشاد العقل السليم ١١٠/٢

رابعا: الجملة الاسمية والفعلية:

بين الاسم والفعل فرق لطيف، يجعل لكل منهما موطنه الذي يخصه في الاستعمال، ومن أجمل من فرق بينهما الإمام عبد القاهر الجرجاني، حيث قال: " وبيانه: أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء. وأما الفعل ؛ فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء ، فإذا قلت: زيد منطلق، فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا؛ بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل وعمرو قصير. فكما لا يقصد ههنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد، أما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك؛ فإذا قلت: زيد هاهو ذا ينطلق، فقد زعمت أن الانطلاق يحدث منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه... "[1]

١. الجملة الاسمية:

فقد تكون الجملة الاسمية شرطية وقد لا تكون، فمن الشرطية:

- وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقرة: ٣٨ جاء جواب الشرط يحمل البشارة لمن اتبع هدى الله واستقام عليه، بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والمعنى: لا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك أصلا لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ، ولا أنهم يعتريهم نفس الخوف والحزن

---

[1] دلائل الإعجاز ١٧٤

أصلا، بل يستمرون على السرور والنشاط ، كيف لا؟ واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته، واستقصارا للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية" والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام" [1]

- وقوله تعالى:﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ إبراهيم: ٣٦ سبق الفعل (تبع) بـ (من) الشرطية وجاء جوابه جملة اسمية ن والمقصود: تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك يا ربي، وإخلاص العبادة لك وفراق عبادة الأوثان فصار مسلما موحدا فإنه من أهل ديني، فقد جاءت جملة جواب الشرط {فإنه مني} لإفادة الثبوت والاستمرار والدوام " جعل أهل ملته كنفسه مبالغة"[2] وقال الزمخشري: " هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي"[3] وأفادت جملة{فإنك غفور رحيم} الدوام والاستمرار من الله عز وجل بمغفرة ذنوب عباده ورحمتهم، وفيه تأدب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة بقدر ما يستطيعه، والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك.[4]

ومن الاسمية غير الشرطية:

- قوله تعالى:﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾ البقرة: ١٤٥ جملة اسمية منفية المقصود منها: حسم أطماع أهل الكتاب إذ كانوا ماجوا في ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجوا أن يكون صاحبنا

---

[1] إرشاد العقل السليم ٩٣/١

[2] فتح القدير ١١٢/٣

[3] الكشاف ٣٠٤/٢

[4] انظر :التحرير ٢٤٠/١٣

الذي ننتظره.[1]" وهذه الجملة أبلغ في النفي حيث كانت اسمية تكرر الاسم فيها مرتين، ومن حيث أكد النفي بالباء في قوله:{تابع}"[2] وقال أبو السعود: " وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره"[3]

ب. الجملة الفعلية:

- قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس: ١٠٩ فقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى إليه على سبيل الدوام متمثلا الصبر فيما يناله من مكروه أو أذى الكفار، وارتباط الفعل (تبع) بالمضارع بعده (يوحى) يفيد التجدد والاستمرار، أي: واتبع اعتقادا وعملا وتبليغا {ما يوحى إليك} على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما بعد يوم.[4]

- واستخدم الفعل (تبع) في قوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ يس: ١١ ماضيا للدلالة على تحقق الاتباع والخشية.[5]

- وللمجهول من فعل (تبع) دلالة بيانية ، كما في قوله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة: ١٦٦ - ١٦٧

---

[1] الكشاف ١/١٠١

[2] البحر ١/٦٠٦ وانظر: الدر المصون ٢/١٦٥

[3] إرشاد العقل السليم ١/١٧٥

[4] انظر: إرشاد العقل السليم ٤/١٨١

[5] التحرير ٢٢/٣٥٣

فقوله:{اتبعوا} بالبناء للمجهول هم السادة والرؤساء الذين ضللوا المشركين ، ونصبوا لهم الأنصاب، وقد أشعر هذا الفعل أنهم كانوا يدعون إلى متابعتهم، وأيد ذلك قوله:{فتبرأ منهم كما تبرأوا منا} أي: نجازيهم على إخلافهم.[1]

وتأمل المجهول في قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ هود: ٦٠ لم يسند إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على أن اتباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقابا من الله عز وجل لا مجرد مصادفة.[2] .

ج. اجتماع الاسمية والفعلية:

- قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ النساء: ٢٧ جاء (تبع) جملة للموصول في الجملة الفعلية{ويريد الذين يتبعون الشهوات} معطوفة على ما قبلها{والله يريد أن يتوب عليكم}إلا أنه صدر الجملة الأولى بالاسم والثانية بالفعل.[3] وليس المقصد في الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات توطئة مظهرة لفساد متبعي الشهوات.[4] "والشهوات: جمع شهوة، وهي ما يغلب على النفس محبته وهواه، ولما كانت التكاليف الشرعية فيها قمع للنفس وردها عن مشتهياتها كان اتباع شهواتها سببا لكل مذمة".[5]

والمقصود بالميل هناك الميل عن الحق وهو الخروج عن قصد السبيل، ولذلك قابل إرادة الله بإرادة متبعي الشهوات وشتان بين الإرادتين... وجاءت الجملة الأولى اسمية والثانية فعلية لإظهار تأكيد الجملة الأولى ؛ لأنها أدل على الثبوت ولتكرير اسم الله

---

[1] انظر:التحرير ١٢/١٠٦

[2] التحرير ١٢/١٠٦

[3] انظر:التبيان في إعراب القرآن ١/٣٥٠

[4] انظر:البحر ٣/٢٣٦

[5] البحر ٣/٢٣٦

تعالى فيها على طريق الإظهار والإضمار، وأما الجملة الثانية فجاءت فعلية مشعرة بالتجدد؛ لأن إرادتهم تتجدد في كل وقت .[1] قال أبو السعود في قوله: { والله يريد أن يتوب عليكم}: " جملة مبتدأة مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى، وكمال مضرة ما يريده الفجرة... وقد غير الأسلوب إلى الجملة الاسمية دلالة على دوام الإرادة، ولم يفعل ذلك في قوله:{ويريد الذين يتبعون الشهوات} للإشارة إلى الحدوث وللإيماء إلى كمال المباينة بين مضموني الجملتين"[2]

- وقال تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ القصص: ٤٢ ضمير المتكلم ي{أتبعناهم} عائد على الحق تبارك وتعالى، فقد شرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده. والتخالف بين صيغتي قوله:{وأتبعناهم} وقوله:{هم من المقبوحين}؛ لأن اللعنة في الدنيا قد انتهى أمرها بإغراقهم، أو لأن لعن المؤمنين إياهم في الدنيا يكون في أحيان يذكرونهم ، فكلا الاحتمالين لا يقتضي الدوام فجيء معه بالجملة الفعلية، وأما تقبيح حالهم يوم القيامة فهو دائم معهم ملازم لهم فجيء في جانبه بالاسمية المقتضية الدوام والثبات.[3]

خامسا: القصر:

القصر:"تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص".[4] أي: أن تجعل الوصف له دون غيره، فتثبته له وتنفيه عن غيره، وله طرق مشهورة، منها : العطف، والنفي والاستثناء، وإنما، والتقديم، وتعريف الجزأين، وضمير الفصل.

---

[1] انظر:التيسير ٣/٢٣٦

[2] إرشاد العقل السليم ٢/١٦٩

[3] التحرير ٢٠/١٢٧

[4] مختصر السعد على التلخيص ٢/١٦٦

وقد تنوعت طرق القصر في صيغ (تبع) وتفاوتت كثـرة وقلـة إلا أن طريق النفي والاستثناء كان أكثر الطرق ورودا .

أ. **طريق النفي والاستثناء:**

طريق النفي (إن، ما ، لا) والاستثناء(إلا) من أقوى طـرق القصـر دلالة على التخصيص والإثبات والنفي، ومن شواهده:

١. النفي بـ (إن):

- قال تعالى:﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ٨﴾ الفرقان: ٨ القصر هنا بالنفي والاستثناء، وقد وضحه البيضاوي بقولـه: " {إن تتبعون} ما تتبعون{إلا رجلا مسحورا}أي: بشرا لا ملكـا."[١] وقـال الزمخشري: " عنوا به بشر لا ملك"[٢] وذكر {رجلا} هنا تمهيد اسـتحالة كونه رسولا ؛ لأنه رجل من الناس ."[٣] وقد برز دور (تبع) في السـياق بأن قصرت التبعية للمؤمنين على رجل مسحور سخرية منه ومنهم.ومثله قولـه تعـالى:﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ الإسراء: ٤٧

- وقال تعـالى:﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ يونس: ٦٦ ختمت الآية بالقصر، وقد أشار ابن جرير إلى معنـى القصر ، فقال: " ما يتبعون في قـيلهم ذلـك ودعـواهم إلا الظـن...{وإن هـم إلا يخرصون} وإن هم إلا يتقولون الباطل تظنيا وتخرصا للإفك عـن غيـر علـم بمـا

---

[١] أنوار التنزيل٤/٨٩

[٢] الكشاف٣/٨٩

[٣] انظر:التحرير١٨/٣٢٩

يقولون"[1] وقال الفخر: " والمعنى: أنهم ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوه شيئا ظنوه شريكا لله تعالى"[2] وهو من قصر الصفة على الموصوف في {إن يتبعون إلا الظن} فهم لا يتبعونه يقينا، وإنما يتبعون ظنهم الباطل، كما أن قوله:{وإن هم إلا يخرصون} من قصر الموصوف على الصفة، أي: ليس لهم صفة إلا الكذب والخرص والتخمين. ووصفهم بذلك فيه توبيخ لهم، وإزراء عليهم بصنيعهم. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ الأنعام: ١١٦ وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٨ والآية الأخيرة وهي من قصر الصفة على الموصوف – قصر اتباعهم على الظن الكاذب الفاسد – قصرا حقيقيا تحقيقيا، تحمل كناية لطيفة عن ركاكة عقولهم وسفههم.

٢. النفي بـ (ما):

- قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ النساء: ١٥٧ فمعظم النصارى المختلفين في شأن عيسى عليه السلام غير مؤمنين بصلبه، بل يخالج أنفسهم الشك، ويتظاهرون باليقين، وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلا اتباع الظن.قال ابن جرير:" ما كان لهم بمن قتلوه من علم ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه ظنا منهم أنه عيسى وأنه الذي يريد قتله ولم يكن به"[3] والجمهور

---

[1] جامع البيان٥/٤٢٣٥

[2] التفسير الكبير٦/٢٧٩

[3] جامع البيان٤/٢٦٢٧

على أنه استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم.[1] قصر علمهم على اتباع الظن تهكما بهم.

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يونس: ٣٦ أي: إلا ما علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شك وريبة. قال الزمخشري: "{وما يتبع أكثرهم} في إقرارهم بالله{إلا ظنا}؛ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم"[2] والمقصود:بيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادي إلى الحق، الناعي عليهم بطلان حكمهم، وعدم تأثرهم من ذلك اهتدائهم إلى طريق العلم أصلا، أن ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتهم إلا ظنا واهيا من غير التفات إلى فرد من إفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق...[3]

وقد دلت صيغة القصر بالنفي والاستثناء على أنهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحق ردا على اعتقادهم أنهم على الحق. والمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه، وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم في أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات إليه.وعلى ذلك ففي تخصيص الاتباع بأكثرهم الإشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة..

---

[1] انظر :التبيان في إعراب القرآن ١/٤٠٦ الدر المصون ٤/١٤٧

[2] الكشاف ٢/١٩٠

[3] إرشاد العقل السليم ٤/١٤٤

وقد يكون المعنى: وما يتبع أكثرهم مدة عمرهم إلا ظنا ولا يتركونه أبـدا، فيكون القصر باعتبار الزمان؛ فإن حرف النفي الداخل على المضارع يفيـد استمرار النفي بحسب المقام ، ويكون معنى الاتباع حينئذ الإذعان والانقياد.

- وقال تعـالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: ٢٧ قصروه على البشرية، فهـو آدمي مثلهم في الخلقة والصورة والجنس"كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه" [1]ثم قصروا أتباعه على سفلة النـاس دون الكبراء والأشراف، قال الزجاج: "لم يتبعك الملأ منا ، وإنما اتبعـك أخساؤنا"[2]

وقد طعنوا في نبوة نوح عليه السلام بثلاثة أنواع من الشبهات، الأولى: أنه بشر مثلهم، والثانية: كونه ما اتبعه إلا أراذل الناس، والثالثة: عدم وجود فضل عليهم في شيء . وقد أسند هؤلآء القوم إلى الرؤية ، والرؤية هنـا رؤية بالعين؛ لأنهم جعلوا استدلالهم ضروريا من المحسوس من أحـوال الأجسام، أي: ما نراك غير إنسان وهو مماثل للناس لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة.[3] والقصر هنا إضافي كما أشار إليه البقاعي بقولـه:" أي: آدميا{مثلنا} أي: في مطلق البشرية، لست بملك تصلح لمـا تصـلح لـه الرسالة"[4]

---

[1] جامع البيان٦/٤٣٢١

[2] معاني القرآن وإعرابه٣/٤٧

[3] التحرير ١٢/٤٧

[4] نظم الدرر ٤/١٤٦

ومقصدهم من ذكر من اتبعه بأنهم من الأراذل المبالغة في الإخبار ، وكأنه مؤذن بتأكيد حصر من اتبعه، وأنهم الأراذل لم يشركهم شريف في ذلك..." وإنما كان كذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد لغيرهم، والفقير خلي من تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد"[1]

فنفوا عن نوح عليه السلام سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه تعريضا بأنهم لا يتبعونه؛ لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم.

ب. طريق إنما:

- قال تعالى:﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

الأعراف: ٢٠٣ بطريق{إنما}أي:إن افتعال الآيات واختلاقها ليس لي ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما يأمرني باتباع ما يوحى إلي من عنده، فإنما أتبع ما يوحى إلي من ربي؛لأني عبده وإلى أمره انتهي وإياه أطيع. كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تراخى الوحي هذه المقالة فأمره الله عز وجل أن يجيب عليهم بذلك . قال القرطبي: " أي: من عند الله لا من عند نفسي "[2] وقال أبو حيان : "بين أنه ليس مجيء الآيات إليه إنما هو متبع ما أوحاه الله تعالى إليه ، وليس بمفتعلها ولا مقترحها" [3]

والقصر هنا على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع ما يمحى إليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة (إنما) إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلفوه إياه صلى الله عليه وسلم لا على معنى تخصيص

---

[1] البحر٥/٢١٥

[2] الجامع لأحكام القرآن ٣٣٦/٧

[3] البحر ٤/ ٤٤٨

اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى إليه بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الشائع في موارد الاستعمال...كأنه قيل: ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي منه تعالى.[1]

- وقال تعالى:﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ يس: ١١ ذكر ابن جرير تفسيرا للآية يناسب القصر، فقال: " إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله..وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين، لا المنافق الذي يستخف بدين الله إذا خلا ، ويظهر الإيمان في الملأ، ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه" [2]والإنذار المراد: هو الإنذار النافع كما قال ابن كثير: " إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم{وخشي الرحمن بالغيب}، أي: حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل" [3]

ويكون هذا التقدير: (النفع) جوابا عما يقال: إن ظاهر الآية يقتضي أن رسالته صلى الله عليه وسلم غير عامة، بل هي لقوم مخصوصين، وهم{من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب}، ويخالف قوله سابقا:{لتنذر قوما} فأجيب عن ذلك: بأن محط الحصر الإنذار النافع، فلا ينافي وجود غيره لمن لم ينتفع به. ولذلك قال الزمخشري: " قفى بقوله:{ إنما تنذر} على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين ، وهم المتبعون للذكر، الخاشون لربهم"[4] فيكون القصر بتخصيص للإنذار النافع

---

[1] إرشاد العقل السليم٣/٣٠٩روح المعاني١٥٠/٩

[2] جامع البيان٦٨١٨/٨

[3] تفسير القرآن العظيم٦٢١/٣

[4] الكشاف٢٨١/٣

بمن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، ويكون الغرض: التنويه بشأن هؤلآء المستجيبين وبشأن الإنذار، وتقوية داعية الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنذار، والثناء على الذين قبلوا نذارته فآمنوا" [1]

ج. القصر بتعريف الطرفين:

- قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الأعراف: ١٥٧

في خاتمة الآية جملة قصرية عن طريق تعريف الطرفين،أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة هم المفلحون، أي: هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرهم من الأمم.[2]

- والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي، أي: هم الذين أفلحوا،أي: دون من كفر به ، بقرينة المقام؛ لأن مقام موسى عليه السلام يقتضي أنه أراد المغفرة والرحمة وكتابة الحسنة في الدنيا والآخرة لكل من اتبع دينه." ويجوز أن يكون القصر ادعائيا دالا على معنى كمال صفة الفلاح للذين يتبعون النبي الأمي، ففلاح غيرهم من الأمم المفلحين الذين سبقوهم كلا فلاح إذا نسب إلى فلاحهم، أي: أن الأمة المحمدية أفضل الأمم على الجملة..."[3]

---

[1] التحرير ٢٢/٣٥٣

[2] إرشاد العقل السليم٣/٢٨٠فتح القدير٢/٢٥٣

[3] التحرير ٩/١٣٨

سادسا: الإسناد المجازي:

وهو: "إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له، بتأول".[1] أي: إلى شيء يتصل به سواء من جهة وقوعه عليه أو وقوعه به، أو وقوعه فيه. ومن العلاقات البارزة في صيغ (تبع):

أ- علاقة السببية:

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ نوح: ٢١ نداء نوح عليه السلام نداء شكوى " شكاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان" [2]ويبرز الإسناد المجازي في قوله:{ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا}بإسناد الشيء إلى سببه ، أي:" واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم ، المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سببا لزيادة خسارهم في الآخرة"[3] أي: أن إسناد الزيادة إلى المال والولد من قبيلي إسناد الفعل إلى سببه؛ " فإن الأموال والأولاد وإن كانت من الأسباب التي يكتسب بها سعادة الآخر بصرفها فيما خلقت لأجله، إلا أنها إذا جعلت ذريعة لقضاء الشهوات النفسية، واستيفاء اللذات العاجلة صارت أسبابا لزيادة خسار الآخرة"[4]

ب- علاقة المصدرية:

فيما أسند للمصدر مجازا. وقد برزت علاقة المصدرية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ غافر: ٤٧ ففي قوله

---

[1] الإيضاح٥١

[2] الجامع لأحكام القرآن١٨/٢٩٣

[3] أنوار التنزيل٥/١٥٣

[4] حاشية زاده على البيضاوي٨/٣٤٨

تعالى:{تبعا} مجاز عقلي علاقته المصدرية . ذكر الزمخشري:" {تبعا} أنه وصف بالمصدر".[1] للمبالغة في تبعيتهم لأسيادهم،" كما يقال : رجل عدل بمعنى ذي عدل أو عادل مبالغة في وصف تبعيتهم لرؤسائهم بجعلهم لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية.[2] فالتعبير بالمصدر للمبالغة في إيثار التبعية وكمال الإخلاص فيها في الحياة الدنيا.قال البقاعي:" ولعله عبر به إشارة أنهم كانوا في عظيم الطواعية لهم قلب رجل واحد"[3]

ج – علاقة الزمانية:

فيما بني للفاعل واسند للزمان،لأنهما يستويان في ملابسة الفعل لكل منهما.[4]

وقد جاء منه قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ التوبة: ١١٧

ساعة العسرة ، أي: وقت العسرة ؛ لأن الساعة تقع في كل زمان، وكان وقت غزوة تبوك شديد الحر، وكان القوم في ضيقة شديدة ، وكان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا من الشدة والفقر ربما اقتسم الثمرة اثنان، وربما مص الثمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر.[5]

---

[1] الكشاف٣/٣٧٣

[2] انظر:حاشية زاده٧/٣٣٢ عناية القاضي٨/٢٧٠روح المعاني٢٤/٧٤

[3] نظم الدرر٧/٣٢٧

[4] انظر:معجم البلاغة العربية٢٦٥

[5] معاني القرآن وإعرابه٢/٤٧٤

والساعة هنا تعني جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها[1] وإنما وصفت بذلك لبيان الشدة والعسر الذي أصابهم في ذلك الوقت. قال أبو حيان:" والساعة مستعارة للزمان المطلق كما استعار الغداة والعشية واليوم، قال:[2]

غداة طفت علماء بكر بن وائل

وقال آخر:[3] عشية قارعنا جذام وحميرا

وآخر: [4] إذا جاء يوما وارثي يبتغي الغنى

وهي غزوة تبوك، كانت تسمى غزوة العسرة "[5] ووصف المهاجرين والأنصار بالأتباع في هذه الساعة للإشارة إلى أنهم حريون بأن يتوب الله عليهم لذلك، وفيه أيضا تأكيد لأمر التحريض السابق.[6]

ويجوز أن يراد بالساعة الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة، إذ السفرة كلها تبع لتلك الساعة وبها، وفيها يقع الأجر عن الله وترتبط النية [7] فيكون كناية عن المشقة التي أصابتهم.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن٨/٢٥٩

[2] صدر بيت لقطري بن الفجأة، وعجزه: ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم وهو من بحرا لطويل. أنظر: الكامل للمبرد٣/٢٩٧ الحماسة البصرية١/٧٩ الوساطة بين المتنبي وخصومه٤٥٠ زهر الأكم في الأمثال والحكم٣/١٦٥ .

[3] عجز بيت لزفر بن الحارث الكلابي، وصدره: وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة... وهو من بحر الطويل. أنظر: شرح ديوان الحماسة١/٧٩ جمهرة الأمثال٢/٢٨٧ الزهرة٢/٦٩٨ نضرة الإغريض٢٨٩ .

[4] صدر بيت لحاتم الطائي، ونصه:

متى ما يجيء يوما إلى المال وارثي يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

وهو من بحر الطويل. أنظر: شرح ديوان الحماسة٤/١٤٦ البيان والتبيين٣/٥٩ وقيل : هو لعتيبة بن مرداس. أنظر: سمط اللآلي٢/٦٨٦

[5] البحر٥/١١٠

[6] روح المعاني١١/٤٠

[7] البحر٥/١١١

خـــــاتمة

في ختام هذا البحث أشير إلى شيء من النتائج، وهي كما يلي:

١. برز الاستفهام كثيرا في آيات المفاضلات والمقارنات والمناظرات التي توضح تبعية المرؤسين لرؤوسهم، كما أن غرضي الإنكـــار والتقرير غالبا ما يكونا مصحوبين بأغراض أخـــرى، كالتهديـــد والنفي ونحوها.

٢. برز غرض التقرير في جملة الاستفهام باعتباره مؤديـــا للإقنـــاع وتقرير المعارضين والمنكرين.

٣. في جملة النداء يكثر ارتباط جملة (تبع) بمقام النصح والترغيـــب، الذي يحوي استمالة للقلوب، وتأثيرا فيهـــا، وترغيبـــا للاتبـــاع، والإقبال على ما فيه خير وصلاح للمدعوين. كما أن النـــداء فـــي جملة (تبع) يتنوع ليشمل نداء الواحد والمجموع.

٤. برزت قوة الاتصال، والرباط الوثيق في جملة القسم بما قبلها وما بعدها، كما حفل بكثير من الأغراض التي تخدم السياق.

٥. تنوع الجملة الاسمية في أمثلة (تبع) بين الشرطية وغيـــر الشـــرطية، وتحقق الدوام والثبات في كلتيهما. وقد اجتمعت الاسمية والفعلية فـــي سياق واحد، ولكن لكل جملة وظيفتها التي تؤديها داخل السياق.

٦. برز طريق النفي والاستثناء في جملة القصر (تبع) أكثر الطـــرق ورودا واستعمالا؛ ذلك أن المقام الذي ورد فيه مقام مجابهـــة ورد لأقوال وأفعال المعاندين؛ الذين يحتاجون في وصف حـــالهم إلـــى تعريتهم عن نقائص الكمال، وسلبية الاتباع، وضـــعفه. فاســـتخدم أقوى الطرق في ذلك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين البيضاوي،دار صادر،بيروت.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق ودراسة: د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ١٩٩٦م.
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، د.منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٣م.
- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ١٩٨٧م.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ٢٠٠١م.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ١٩٩٩م.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس،١٩٨٤م.
- تفسير الجلالين، دار مروان، الدار العربية.
- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير،مكتبة دار الفيحاء .
- التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ٢٠٠١م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن سعدي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ٢٠٠٢م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد بن عبد الرزاق البكري وجماعة، دار السلام، مصر،ط١، ١٤٢٥هـ٢٠٠٥م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، مراجعة وضبط د.محمد بن إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة،ط١، ١٤١٤هـ١٩٩٤م.
- حاشية الدسوقي على شرح السعد، دار السرور، بيروت، لبنان.

- حاشية الشهاب المسماة(عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي، للقاضي شهاب الدين الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- حاشية محي الدين شيخ زاده(محمد بن مصلح الدين) على تفسير البيضاوي، ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- الحماسة البصرية، صدر الدين علي بن الحسن البصري، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي،دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليوسي، تحقيق: د. محمد حجي. د.محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، لبنان، د.ت.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،ليحي بن حمزة العلوي،دار الكتب العلمية-بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني،عالم الكتب.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، دار الفكر، بيروت،١٤٠٣هـ-١٩٨٤م.
- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ، القاهرة.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري،دار الباز، مكة المكرمة.
- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، دار صادر، بيروت.
- المخصص،ابن سيده علي بن إسماعيل، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

- معاني القرآن وإعرابه،للزجاج(إبراهيم بن السري)، تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن،جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، دار المنارة، جدة، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي،، المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، ١٩٨٢م.
- نظم الدررفي تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ.
- النظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر بن عبد الرحمن الخنين، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم. علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.